

الإخلاذ إلى الشّهوات والائغماس فى المَلذّات

أخى :

لتعلم أن بين العبد وبين الله والجنة قنطرة تقطع بخطوتين : خطوة عن نفسه والثانية خطوة عن الخلق ؛ فيسقط نفسه ويلغيا فيما بينه وبين الناس ، ويسقط الناس ويلغيم فيما بينه وبين الله ، فلا يلتفت إلا إلى من دلّه على الله وعلى الطريق الموصّلة إليه . وللعلم أذكر لأخى وسيدى أن أصول المعاصى كلها ، كبارها وصغارها ثلاثة : أولا : تعلق القلب بغير الله — ثانيا : طاعة القوة الغضبية — ثالثا : طاعة القوة الشهوانية ، وهى الشرك ، والظلم ، والفواحش . فغاية التعلق بغير الله شرك وأن يدعو مع الله إلهآ آخر ، وغاية طاعة القوة الغضبية القتل ، وغاية تعلق القوة الشهوانية الزنى ؛ ولهذا جمع الله سبحانه بين الثلاثة فى قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ﴾ وهذه الثلاثة يدعو بعضها إلى بعض فالشرك يدعو إلى الظلم والفواحش ، كما أن الإخلاص والتوحيد يصرفهما عن صاحبه . قال تعالى : ﴿ كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ ﴾ فالسوء : العشق وغير ذلك . والفحشاء : الزنى . وكذلك الظلم يدعو إلى الشرك والفاحشة ، فإن الشرك أظلم الظلم ، كما أن أعدل العدل التوحيد ، فالعدل قرين التوحيد ، والظلم قرين الشرك ، ولهذا جمع الله بينهما ، أما الأول ففى قوله سبحانه : ﴿ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُوا الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ ﴾ وأما الثانى فكقوله سبحانه : ﴿ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾ والفاحشة تدعو إلى الشرك والظلم ، ولا سيما إذا قويت إرادتها ولم تحصل إلا بنوع من الظلم ، وقد جمع الله بينهما (بين الشرك والزنى) فى قوله تعالى : ﴿ الزَّانِي لَا يَنْكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرَكَةً وَالزَّانِيَةُ لَا يَنْكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحُرْمٌ ذَلِكَ عَلَى

الْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٢﴾ . فهذه الثلاثة يجز بعضها إلى بعض ويأمر بعضها ببعض ؛ ولهذا كلما كان القلب أضعف توحيدا وأعظم شركا كان أكثر فاحشة وأعظم تعلقا بالصّور وعشقا لها . فانظر أخى وتدبر ، وقل رب زدنى علما .. وقد علمت أخى وسيدى أن السبب فى فطام النفس عن الشهوات المباحة المراد به الحد من طغيانها خشية استرسالها فى المحرمات ، وعليه أذكر لأخى وسيدى أن من يجد المشقة فى ترك المألوفات والعوائد مَنْ تركها لغير الله . أما من تركها صادقا مخلصا من قلبه لله عز وجل فإنه لا يجد فى تركها مشقة إلا فى أول وهلة ليمتحن أصادق هو أم كاذب ، فإن صبر على تلك المشقة قليلا استحالت لذة ، وقد قال بعض العارفين : « من ترك لله شيئا عوضه الله خيرا منه » والعوض أنواع مختلفة ، وأجل ما يعرف به الأنس بالله ومحبته ، وطمأنينة القلب به ، وقوة نشاطه وفرحه ورضاه عن ربّه تعالى . فاعلم أخى وسيدى أنه لا طريق للشيطان على المؤمن إلا من ثلاث جهات : أحدها التزيّد والإسراف ، فيزيد على قدر الحاجة فتصير الزيادة فضلة وهى حظ الشيطان ، ومدخله إلى القلب . وطريق الخلاص منه : الاحتراز من إعطاء النفس تمام مطلوبها من غذاء أو نوم أو لذة أو راحة ، فمتى ما أغلقت هذا الباب حصل الأمان من دخول العدو . الثانية : الغفلة ، فإن الذاكرة فى حصن الذكر فمتى غفل وفتح باب الحصن فولج العدو فيعسر أو يصعب عليه إخراجه . الثالثة : تكلف ما لا يعنيه من جميع الأشياء . والله المستعان . فاعلم أخى وسيدى أن اللذة الدنيوية ، أيا كان نوعها مطلوبة للإنسان ، بل ولكل كائن حى ، فلا تدم من جهة كونها لذة ، وإنما تدم ويكون تركها خيرا من ثيلها وأنفع إذا تضمنت فوات لذة أعظم منها وأكمل ، وأعقبت ألما حصوله أعظم من ألم فواتها ، فهنا يظهر الفرق بين العاقل الفطن والأحمق الجاهل فمتى عرف العقل التفاوت بين اللذتين والألمين وأنه لا نسبة لأحدهما إلى الآخر هان عليه ترك أدنى اللذتين والألمين لتحصل أعلاهما ، واحتمال أيسر الألمين لدفع أعلاهما . وإذا تقررت هذه القاعدة فلذة الآخرة أعظم وأدوم ، ولذة الدنيا أصغر وأقصر ، وكذلك ألم الآخرة وألم الدنيا ، والمعول فى ذلك على الإيمان واليقين ، فإذا قوى اليقين وبارش القلب أثر الأعلى على الأدنى فى جانب اللذة ، واحتمل الألم الأسهل على

الأصعب . وبالله التوفيق . وللعلم أذكر لأخي وسيدى أن الجهل بالطريق وآفاتها والمقصود بها يوجب التعب الكثير مع الفائدة القليلة ، فإن صاحبه إما أن يجتهد في نافلة مع إضاعة الوقت والفرصة أو في عمل بالجوارح لم يواطئه عمل القلب أو عمل بالباطن والظاهر ولم يتقيد بالاعتداء ، أو همة إلى عمل لم ترق بصاحبها إلى ملاحظة المقصود أو عمل لم يحترز من آفاته المفسدة له حال العمل وبعده ، أو عمل غفل فيه عن مشاهدة المنة ، فلم يتجرد عن مشاركة النفس فيه ، أو عمل لم يشهد تقصيره فيه فيقوم بعده في مقام الاعتذار منه ، أو عمل لم يوفه حقه من النصح والإحسان ، وهو يظن أنه وفاه كله ، فهذا وغيره مما ينقص الثمرة مع كثرة التعب .

فاعلم أخي وسيدى أن بدن ابن آدم خلق من الأرض ، وروحه من ملكوت السماء ، وقد قرن الله بينهما ، فإذا أجاج بدنه وأسهره ، وأقامه في الخدمة وجدت روحه خفة وراحة فتاقت إلى الموضع الذي خلقت منه ، واشتاقت إلى عالمها العلوى ، وإذا أشبعه ونعمه ونومه ، واشتغل بخدمته وراحته أدخل البدن إلى الموضع الذي خلق منه فانجذبت روحه إلى الجسد واستغاثت منه كما يستغيث المعبذب ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ ﴿ يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ * ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً * فَادْخُلِي فِي عِبَادِي * وَادْخُلِي جَنَّتِي ﴾ صدق الله العظيم .

وعليه أقول لأخي وسيدى إنه كلما خف البدن لطف الروح وخفت . ترى الرجل روحه في الرفيق الأعلى وبدنه عندك فيكون نائما على فراشه وروحه عند سدره المنتهى تجول تحت العرش ، وآخر واقف في الخدمة بيدنه وروحه في السفلى تجول حول السفليات ، فإذا فارقت الروح البدن التحقت برفيقها الأعلى أو الأدنى ، فعند الرفيق الأعلى قرّة كل عين وكل نعيم وسرور وبهجة وفرحة ولذة ، وحياة طيبة ﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنشَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ ﴿ إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا

تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿١﴾ ، وعند الرفيق الأسفل كل همّ وضيق وغمّ وحزن ، وحياة نكدية ومعيشة ضنكاً . قال تعالى : ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى ﴾ . فاعلم أخى وسيدى أن الشهوة دواؤها صحة العلم والمعرفة بأن إعطاء النفس شهواتها أعظم أسباب حرمانها ، ومنعها منها أعظم أسباب اتصالها بخالقها ، فكلما فتحت على النفس باب الشهوات والملذات كنت ساعياً في حرمانها ، وكلما أغلقت عليها ذلك الباب كنت ساعياً في اتصالها على أكمل الوجوه . والمراد بالشهوة كل ما يتعلق برغبات النفس . فاعلم أخى وسيدى أن الوصول إلى المطلوب موقوف على هجر العوائد ، والعوائق والعلائق ، والعوائد هي السكون إلى الدعة والراحة ، وما ألفة الناس واعتادوه من الرسوم والأوضاع التي جعلوها بمنزلة الشرع المنيع ، أما العوائق فهي أنواع المخالفات ظاهرها وباطنها لأنها تعوق القلب عن سيره إلى الله وتقطع عليه طريقه وهي ثلاثة : شرك ، وبدعة ، ومعصية . فيزول عائق الشرك بتجريد التوحيد ، وعائق البدعة بتحقيق السنة ، وعائق المعصية بتصحيح التوبة . وهذه العوائق لا تتبين للعبد حتى يأخذ في أهبة السفر ويتحقق بالسير إلى الله والدار الآخرة ، فحينئذ تظهر له هذه العوائق ، ويحس بتعويقها له بحسب قوة سيره وتجرده للسفر ، وإلا فما دام قاعدا لا يظهر له كوامنها وقواطعها . وأما العلائق فهي كل ما تعلق به القلب دون الله ورسوله من ملاذ الدنيا وشهواتها ورياستها ، وصحبة الناس والتعلق بهم . ولا سبيل إلى قطع هذه الأمور الثلاثة ورفضها إلا بقوة التعلق بالمطلب الأسمى ، وإلا فقطعها عليه بدون تعلق بالله ممتنع ؛ فإن النفس لا تترك مألوفاتها ومحوباتها إلا لمحجوب أشد وأحب إليها وأثر عندها ، وكلما قوى تعلق القلب بمطلوبه ضعف تعلقه بغيره ، وكذا بالعكس : والتعلق بالمطلوب أعنى شدة الرغبة فيه ، وذلك على قدر معرفته وشرفه وفضله على ما سواه . وقد علمت أخى وسيدى أن لذة كل أحد على حسب قدره وهمته وشرف نفسه ؛ فأشرف الناس نفساً ، وأعلاهم همة ، وأرفعهم قدراً مَنْ لذته في معرفة الله ومحبته ، والشوق إلى لقائه ، والتودّد إليه بما يحبّه ويرضاه ، فلذّته في إقباله عليه ، وعكوف همته عليه . ودون ذلك مراتب لا يحصيها إلا الله حتى تنتهى إلى مَنْ

لذته في أحسن الأشياء من القاذورات والفواحش في كل شيء من الكلام والفعال والأشغال ، فلو عرض عليه ما يلتذ به الأول لم تسمح نفسه بقبوله ولا التفات إليه ، وربما تأملت من ذلك ، كما أن الأول لو عرض عليه ما يلتذ به هذا لم تسمح نفسه ، ولم تلتفت إليه ، بل نفرت منه نفسه . وأكمل الناس لذّة من جُمع له بين لذة القلب والروح ولذة البدن ؛ فهو يتناول لذاته المباحة على وجه لا ينقص حظه من الدار الآخرة ، ولا يقطع عليه لذة المحبة والمعرفة والأنس بربه تعالى ، فهذا ممن قال تعالى فيه : ﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ ﴾ وأنحسهم حظاً من اللذة من تناولها على وجه يحول بينه وبين لذات الآخرة ، فيكون ممن يقال فيهم ويقال لهم يوم استيفاء اللذات ﴿ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُمْ بِهَا ﴾ فهؤلاء تمتعوا بالطيبات وأولئك تمتعوا بالطيبات ، ولكنهم اختلفوا في وجه التمتع : أما الفريق الأول فلقد تمتعوا بها على الوجه الذي أذن الله لهم فيها ، فجمع لهم بين لذة الدنيا ولذة الآخرة . والفريق الثاني تمتعوا بها على الوجه الذي دعاهم إليه الهوى والشهوة ، سواء أذن لهم أم لم يؤذن ، فانقطعت عنهم لذة الدنيا ، وفاتهم لذة الآخرة ، فلا لذة الدنيا دامت لهم ، ولا لذة الآخرة حصلت . فمن أحب اللذة ودوامها والعيش الطيب فليجعل لذة الدنيا موصلة إلى لذة الآخرة بأن يستعين بها على فراغ قلبه لله وإرادته وعبادته فيتناولها بحكم الاستعانة والقوة على طلبه لا بحكم مجرد الشهوة والهوى ، وإن كان ممن زويت عنهم لذات الدنيا وطيباتها فيجعل ما نقص منها زيادة في لذة الآخرة ، ويجشم نفسه هجرها بالترك ليستوفيها كاملة هناك ، فطيبات الدنيا ولذاتها نعم العون للعبد لمن صح طلبه لله والدار الآخرة وكانت همه لما هناك ، وبش القاطع النازع من الله والدار الآخرة فمن أخذ منافع الدنيا على وجه لا ينقص حظه من الآخرة ظفر بهما جميعاً ، وإلا خسرهما جميعاً . وختاماً أقول لأخي وسيدى : إن العارف بالله لا يأمر الناس بترك دنياهم لأنهم لا يقدرّون على تركها ، ولكن يأمرهم بترك الذنوب مع إقامتهم على دنياهم ، فترك الدنيا فضيلة وفضلة ، وترك الذنوب فريضة ، وكيف يؤمر بالفضيلة من لم يُقم الفريضة ؟؟ . العارف بالله يدعو الناس إلى الله من دنياهم فتسهل عليهم

الإجابة . والزاهد يدعوهم إلى الله بترك الدنيا فتشوق عليهم الإجابة ؛ فإن
القطام عن الثدي الذى ما عقل الإنسان نفسه إلا وهو يرتضع منه شديد ،
ولكن تختار من المرضعات أزكاهن وأفضلهن ، فإن اللبن تأثيرا فى طبيعة
المرتضع .

أخى يكفى هذا القدر بتوفيق الله وإعانتة . والسلام عليكم ورحمة الله .
